

الأساليب الجليلة المجيدة للأدعية النبوية

د. كفايت الله همداني

محاضر بقسم اللغة العربية،

الجامعة القومية للغات الحديثة بإسلام آباد.

Abstract

Every person who has attachment with Arabic Literature is well Wail that the Prophet Mohammad (Peace be upon him) is the most rhetorician and eloquent person of the world. This rhetoric is evident in his invocations in addition his speeches, betters and commandments.

In this article, some examples of rhetoric chesaebrities of Prophets Invocations have been given.

إن أسلوب الأدعية النبوية فن من الأدب الممنثور، يمتاز عن فنونه ومراضيعه الأخرى . وذلك لطبيعة تلك المأثورات من حيث عناصرها اللغوية أولاً، ومن حيث غاياتها التعليمية والتأثيرية ثانياً، فكذلك يمتاز منها بالنسبة إلى شخصية الأديب التي تورث الاختلاف في الأسلوب، كما أنه يتأثر باختلاف نفس الموضوع.

فنرى لشخصية النبي أفصح العرب ﷺ على فن الأدعية المأثورة عنه طابعاً

خاصاً في تفكيره وتصويره وتعبيره، يمتاز به عما عنده من النثر الأدبي. فيترأى حينئذ كأن شخصيته هو أسلوبها، وبذلك يرى الباحث المتتبع أنا رتلك الشخصية في كيفية هذا الأسلوب تبعاً لما يمتاز به عقله وشعره وخلقه الكريمة وثقافته ومنهجه في الحياة، حتى تبين له ميزاته في الكلم والعبارات والصور، وفي طريقة الفكر ولون المزاج ومستوى الرقي والتهذيب. (١)

وبا لجملة: إن امتياز أسلوب الأدعية النبوية يدور على أمرين:

١: مقتضى الدواعي الذي حمل المنشئ على اختيار هذا الفن أدى به ما شاء من التقديس والتحميد واستنفاع المضار واستجلاب المنافع على وجه غاية التضرع والإنابة.

٢: امتياز طباعة الأسلوب بطابع شخصية الأديب المأثور عنه عليه السلام. وهو الذي اكتنز في مخايبه هذا الفن وأدراجه أو فرآه لآلي الأدب، قلما يجدها الباحث في فنون النثر سواه وبذلك يتحقق لأسلوب الأدعية المأثورة ميزتان: ميزة من حيث أنها فن أدبي، احتوى على الأسلوبين العلمي والأدبي، لا يكادان يجتمعان في كلام أحد من الأدباء وميزة خاصة من حيث هو أثر لمنشئها الموحى إليه. وتلك الشخصية كانت متكونة من عدة عناصر تأثر منها أسلوبه، ولا سيما في الأدعية المأثورة عنه. وأهمها:

أ: الطبع

كان رسول الله صلى الله عليه وآله في منطلق على أتم ما يتفق في طبيعة اللغة العربية، وبتهيماً إحكام الضبط وإتقان الأداء، كان ذا لفظ مشبع ولسان بليل وتجويد فخم

ومنطق عذب وفصاحة متأدية ونسق متساق. وطبع ذلك كله في شخصيته مع تحفظ وثبت وتسيل وترتيل.

ويشهد لذلك ما قالت أم المؤمنين عائشة الصديقة رضي الله عنها " ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردهم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل، يحفظه من جلس إليه" وفي رواية أخرى عنها " كان رسول الله ﷺ يحدث حديثاً لو عدّه عاد لأحصاه " (١).

ثم لا مواراة على أن حديث أم المؤمنين عائشة الصديقة رضي الله عنها يرشدنا إلى عدة خصائل في كلام النبي ﷺ وهي تعد من ميزاتة:

أ: تنزيه الكلام عن التعقيد والإبهام، وسريان الاعتدال في جميع عناصره حسب مقتضى المقام.

ب: وضوح الكلم الدالة على المعاني المفصلة وضحاً يجلب خواطر أهل اللسان من غير دقة وتخبط.

ج: سريان الكلام من مسارب المشاعر وسبل الأذهان إلى أعماق القلوب الواعية، حتى لا ينسى طول الحيوة.

د: تفصيل المعاني بألفاظ مشرقة على وجه الترتيل والترسيل، من غير الثثرة والتفهيق والتشديق. ويشهد لذلك قول الوصاف الحليلة همدان بن أبي هالة لسيدنا الحسن بن علي رضوان الله عليهم حينما سأله عن حلية النبي الكريم وكلامه ﷺ:

" كان رسول الله ﷺ متواصلاً الأجران دائم الفكر، ليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجته، يطويل السكوت، يفتح الكلام ويختمه بإشراقه، ويتكلم جوامع الكلام ﷺ " (٢)

حيث يصور لنا صورة أكمل الإنسانية، صورة تراها ترجماناً لأسلوب كلامه المليء بحكمة تسحر عقول السامعين ويجذبها إليه وتغلبها .
 فنرى أن هذا هو المنطق الذي يمر بالفكر السديد قبل أن يخرج إلى النطق، بل أن المعقل المغالب تصرف فيه من وراء اللسان، حتى لا يعتريه لبس ولا يخونه نقص وليس إحكام الأداء وروعة الفصاحة وعذوبة المنطق وسلامة النظم إلا من خصصا ثلثة الموردوة فيه عند أسبأ بها الطبيعية، بحيث لم يتكلف لها عملاً ولا ارتماض من أجلها رياء، بل خلق مستكمل الأداة في تلك الخصائل ونشأ مؤفر الأسباب عليها فيتراءى كأن شخصيته صورة تامة من الطبيعة العربية. (٤)

ب: أثر البيئة

كان أنضاد النبي ﷺ أعمامه وعشيرته وأهله من قريش. ولا ريب في أنهم كانوا فصحاء العرب السنة وأخلصهم لغة وأعذبهم بياناً. وقد ارتفعوا عن لهجات ردية اعتبرت في كثير من مناطق العرب فسلمت بذلك لغتهم. على أن النبي ﷺ قد ازدهر فصاحة وبلاغة من أوائل صباه في مزهر بني سعد بن بكر الأدبي والثقافي. وكان لهم شأن ممتاز في إتقان اللغة العربية عمن سواهم بيد أن رسول الله ﷺ قد كان في المعراج اللغوي بعيد المصعد، فكان على حد الكفاية في قدرته على الرضع والتشقيق من الألفاظ وانتراع المناهب البيانية، حتى اقتضب ألفاظاً كثيرة لم تسمعها العرب من قبله، ولم يتفق لأحد مثلها في حسن بلاغتها وقوة دلالتها، وغرابة القريحة اللغوية في تأليفها وتنظيمها. فالحق أن تلك البيئة قد تأثرت منه أزيد مما تأثر منها ويكفي في ذلك برهاناً سؤال علي بن أبي طالب: يا رسول الله! نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفرد العرب بما لا نفهم أكثره؟ (٥)

ج: التربية والتنقيف

لا مواراة أمام الباحث المنتبع على أن الأدعية النبوية نبعت من قلب كان أعمق التفكير وأورع الترتيب للمعاني، وأحرص على جمال التصوير وجودة التعبير، وبذلك تغرزت معانيه وتهذبت عبارته وتوافرت له الملائمة بين ألفاظه ومعانيه وما كان ذاك إلا لتصفقه بالتربية الربانية والتنقيف السماوي. ويشهد لذلك قول النبي الكريم ﷺ: "أدبني ربي، فأحسن تأديبي" (٦). حين سأله علي أبي طالب رضي الله عنه وقد سمعه يخاطب وقد بني نهدي، يا رسول الله انحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفرد العرب بما لا نفهم أكثره؟

د- الابتكار

كان من خصائص كلام النبي الكريم ﷺ عرض الأفكار والمخيلات كما يجول في مجال نفسه الزكية في أقوى أحوالها وأوضح خواصها، وثوقاً بالنفس والالتفات إليها من غير تحرج وتكلف أو تقليد أحد في التصنيع، بحيث تطيع أساليب موضوع الكلام لطريقة تفكيره وتصويره. ولذلك كان كلامه، ولا سيما في الأدعية النبوية، مظهراً مميزاً لشخصيته ولجلب النفوس إلى قبوله. وذلك لأن النبي ﷺ كان يستمد في صياغة كلامه من نفسه بلفظه وعبارته دون تقليد أي أديب سواه. (٧)

تأثر أساليب الأدعية المأثورة عن الشخصية النبوية

مظاهر الميزات النبوية الفردية في إنشاء النصوص الأدبية تنحصر في ثلاث

أنحاء.

أ: من حيث الألفاظ، حينما يختلف الأدباء في الألفاظ والجمال والفقر والعبارات.
ب: من حيث المعاني، كما نرى دأب الأدباء مختلفاً في المطابقة بين اللفظ والمعنى المراد، أو ترجيح جانب اللفظ على جانب المعنى المقصود أو على العكس.

ج: من حيث الصنعة، كالاكتفاء بالأسلوب الطبيعي أو الحرص بالمصنوع صنعة بديعية قوامها السجع والجناس والطباق ونحوها.

الناحية الأولى

تأثير الأدعية النبوية من حيث اللفظ يتناول تأثير المفردات والجمال والفقر والعبارات.

تأثير المفردات

تأثير أساليب الأدعية النبوية يراه الباحث المتتبع في مفرداتها من حيث كونها دقيقة محدودة فلا يجد في كل منها إبهاماً ولا اشتراكاً، بل ربما يجد فيها اصطلاحات علمية شرعية، كما يجد فيها فنية الأدب العام يتلأ في مفردات تلك المأثورات دقة وفصاحة، كما تلوح الموسيقى والرشاقة فيها، لا يكاد السامع يشم منها رائحة الخشونة وبذالة السوقية أو يرى في إحداها الجفاف العادي ولون البداوة.

تأثير الجمال

الجملة هي الفكرة التامة بحيث يصح سكوت المتكلم عليها اسمية كانت أو فعلية، خبرية أو إنشائية، مثبتة أو منفية فكثيراً ما نجد الجمال الدعائية من تلك المأثورات قصيرة موجزة كما قد تكون طويلة تامه العناصر مثل: "غفرانك" (ه) عند الخروج من

الحش ونحوه: "اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً" (٩) وأيما كان فنراها يجري في أوصالها روح الرقة كما يتراءى روح النعمة يترشح منها عند التلفظ ، وما إلى تلك.

تأثر الفقر

الفقرة تتكون من عدة جمل، فربما تقع فصلاً من المقالة على الصلاة بين الجممل وتنوعهما وارتباطهما معاً. فيلاحظ فيها الفصل، والوصل والإيجاز والإطناب والمساواة، ويراعى فيها الارتباط اللفظي والمعنوي بما قبلها وبما بعدها. فتوجد هذه الخصائل في الأدعية المأثورة متنوعة بتنوع المناسبات منها، كما توجد فيها البساطة والسهولة، بحيث تكون بمعزل عن التعقيد، والاضطراب والاشترار ونحوها.

تأثر العبارات

العبارة هي العنصر اللفظي الذي يقابل العنصر العقلي والصوري وهي تقوم على العناصر اللفظية المذكورة، ثم تتأثر بمنهج الفن أو الموضع، وبمزاج الأديب من ذوقه وطبيعته وثقافته وبيئته.

فنرى عبارة الأدعية النبوية متواصلة متدفقة، تمر على الخاطر كالنسيم الطيب، أو تلج في مسارب الأذان، بعذوبة الألحان لا توقف فيها ولا تكلف. وذلك لأن منشئها كان يسلم طبعه السمع ونفسه وعاطفته الرقيقة وذوقه الأدبي. بيد أننا نجد في أوصال تلك الأدعية آثار عقل المنشئ النبوي وذكائه وحانه وصنعمته في التنسيق العجيب، وإحكام أحسن التركيب، شرطاً وجزأً واستثناءً وترتيباً واستنباطاً من غير أي تكلف. فعباراتها كالمرسقى مقسمة متتلة، أو كالماء الجاري بين الصخور يتمهل ليظفر بالمسارب والمنافذ، كما تترشح من

فقرها الحكمة المستلهمة (١٠).

وبما لجملة: أن الأدعية الماثورة فن التفكير والتصوير والتعبير، اكنتر في مدافنهم جميع خصا ئل الأسلوب "العلمي الأدبي" وليس كفنون الأدباء أرباب الممنثور والمنظوم. حيث تنقسم تلك الخصا ئل الأسلوبية أشناتاً بينهم. كما يشهد لذلك ما قال العلامة ابن الأثير: "واعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر، فما لألفاظ الجزلة تتمثل في السمع كأشخاص عليها مهابة وقار مورع. والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج. ولذلك نرى الفاظ أبي تمام الطائي رحمه الله كأنها رجال قدر كبروا خيولهم واستلأموا أسلحتهم وتأهبوا للطراد. ونرى الفاظ البحتري رحمه الله كأنها فتيات حسان، عليهن غلا ئل مصبغات، وقد تحلين بأصناف الحلبي" (١١).

الناحية الثانية

هما مظهران لميزات الشخصية النبوية في أسلوب فن الأدعية الماثورة عنه ﷺ وهو كمية الصلة بين اللفظ والمعنى. فإننا نرى من الأدباء من يبذل جهده في مطا بقتهما، ومنهم من يصرف عنان جده إلى تجويد الآخر، والأصل في هذه الناحية أن الغرض من التعبير والبيان تلويح ما في النفس من الحقائق والمعارف والأخيلة والعواطف وإيصالها إلى القراء والسامعين. ولا ريب في أن وسيلة ذلك هي الأسلوب الملفظي، وينوط به الإفهام والتأثير، كما يرى المنتبع هذه الغاية متحققة كمال التحقق في ما ثورات الأدعية.

الناحية الثالثة

هي توشيح الأسلوب بما لصنائع البديعية، وتحسينه بالاستعارة والكناية

ونحوها من المحاسن البديعية مثل التجنيس والتسجيع والمطابقة ونحوها. ونرى تلك المحسنات والموشحات في أسلوب الأدعية النبوية محظوظاً بأوقافها بيد أن أولئك المحاسن انفجرت من سماحة الطبع المستلهم بسهولة تامة من غير أي كمد وراء المعناني العميقة، ومن غير أي تكلف في بحث ألفاظ غريبة، حيث تخلص أسلوبها في السهولة وعدم الشغف بالبديع، إلا ما جاء طبيعياً، وفي حسن التصوير الخيالي وروعة الترتيب والتقسيم والمطابقة الملائمة من غير أي تكلف ثقيل. (١٢)

صفات الأسلوب في الأدعية الماثورة

لأسلوب الأدعية الماثورة صفات كثيرة شتى، مثل كونه تصويرياً سهلاً، موجزاً أو مطناً أو مساوياً للمعنى المراد، وما إلى ذلك من السمات الواضحة في عباراتها. بيد أن هذه الأوصاف تندرج جميعها في ثلاث خصائص وذلك لعمومها وعمقها، لمصلتها بنفس الأديب وعواطفه وذوقه ومعارفه تارة، ولا تصالها بعبارته أخرى. ولذلك تسمى بعناصر الأسلوب وأركانها. ثم ترجع هذه الأركان الثلاثة إلى أصل واحد وهو "صدق التعبير".

والصفات الثلاثة، التي هي عناصر الأسلوب، وهي: الوضوح لقصد الإفهام، والقوة لإفادة التأثير، والروعة الجمالية للإمتاع والسرور.

أ: وضوح الأسلوب

الباحث في الأدعية الماثورة يرى أسلوبها واضحاً مفهوماً يفيد القراء والسماعين حسب مستواهم الثقافي. وذلك أول أمر يجب على المنشئ الأديب في إنشائه وإنما يمكن ذلك بترويضهم معارف الحياة المفلحة في أسلوب أدبي مليء

روعة، حيث بعث فيها منشئها عواطفه النفسية وأخيلته الملائمة . ولا ريب في أن المصادر الأول لتلك الأدعية هو العقل النبوي المؤيد فأدى مراده كما هو، بعدما فهمه فهماً دقيقاً جليلاً، حيث ما رضي عن كلمة أو جملة تبعث الإبهام أو الاشتراك المحتاج إلى التوضيح . ولذلك يرى القارئ والسماع قيمة أسلوبها متراثة . وبالمجمل : أن وضوح الأسلوب لا يتحقق إلا بوجود أمرين ، أحدهما الدقة المتعلقة بنفس الأفكار، وثانيهما الجلاء المتصل بالقاري والسماع . وهذان الأمران قد تحققا في الأدعية النبوية بأكمل الوجه .

الأول: الدقة أو وضوح الفكرة

قد تحققت في الأدعية النبوية الدقة من حيث أداء الفكرة كما هي في الضمير، ممتازة عما سواها، ظاهرة الخواص والمعالم . فنرى تلك الفكرة المردوعة في العبارة سهلة قريبة، مثل " الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين " (١٣)

ونحدر " اللهم اغفر لحينا وميتنا وشاهداً وغائبنا . . " (١٤) وما إلى ذلك . وذلك لعدة وجوه:

١- انطواء تلك الأدعية على الكلمات المعينة

أي انطواء تلك الأدعية على الكلمات المعينة الدالة على الفكرة المقصودة دلالة كما ملأ من غير اشتراك بين معان، حيث لم تبق فيه لطافة بعبارة الفهم مختصرة ، تلفت النظر ويحتاج إلى أناة . واحتوائها على الكلمات الظاهرة المعالم والميزات، حيث يعرف السامع الفروق الدقيقة بينها وبين ما يرا د فيها ويميزها عما عداها من غير كدّ ومشقة . وأساليب الكلام المحتوي بمثل هؤلاء الكلمات يسمى

” أسلوباً جزئياً“.

ونرى ذلك مراعاة الفروق الدقيقة بين ” الهم والحزن“ وبين ” الحزن والبخل“ في الاستعانة منها: ” اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الحزن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال“ . (١٥)

فإن لفظي ” الهم والحزن“ وإن كانا مترادفين على معنى واحد في بادئ الرأي ، وهو الغم الحاصل من سبب متحقق في الواقع يو جب التأسف الشديد ، بيد أن الهم ثمرة أسباب متنوعة من اختيار الهموم وإرادته . وأما الحزن فهو الغم الحاصل من العوامل الخارجية ، التي لا تتأثر عن إرادة المحزون واختياره تحققاً وعمداً .

وكذلك الفرق بين ” العجز والكسل“ فإن الأول هو المانع الذي يمنع العمل من وجوده أو من كماله ، ويكون متولداً من النقائص الفطرية أو عوارض النفس الأمرية التي لا دخل لاختيار العبد فيها إيجاباً وإعداداً . بخلاف ”الكسل“ فإنه مانع ينشأ من اختياره . وإلى ذلك رمز قول الله تعالى ﴿ لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾ (١٦) .

ونحو ذلك الامتياز بين ” الحزن والبخل“ فإن الأول عبارة عن فقدان قوة الرجالية النافذة . وأما ”البخل“ فعبارة عن إعدام إرادة العمل بسبب الحرص في ضده . وفي تكرار ” أعوذ“ تلميح إلى استقلال كل رذيلة من تلك الرذائل المحتاجة إلى الاستعانة المستقلة .

٢- الاستناد بعناصر الشارحة أو المقيدة أو المخيلة

الوجه الثاني لوضوح الأسلوب الاستناد بعناصر الشارحة أو المقيدة أو

المخيلة، مثل النعوت والمضاف إليه والحال والتميز والاستثناء، وما إلى تلك من عوامل إيضاح المعاني وتحديدتها، التي تسهل أسلوب الكلام. مثل القرينة المخيلة في دعاء المغلوب عن أعدائه: "اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم" (١٧) فإن الجملة الثمانية تدل على تعيين المقدر في الجملة الأولى. لأن المستعاض به يستلزم أن يكون قادراً على دفع الشر من المستعاض به، فيكون التقدير: "نجعل قدرتك الدافعة في نحورهم".

٣- إيضاح المعاني بأضدادها

الوجه الثالث لوضوح الأسلوب إيضاح المعاني بأضدادها، فإن تقابل الكلم المتضادة المعاني مما يساعد في إيضاح الفكرة الغامضة بازدياد خواص كل من المتضادين المتقابلين. وذلك مثل: "اللهم إني أسألك من خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به" (١٨). عند تعصف الرياح. ونحوه "اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وارضنا وارض عنا" (١٩) وكما في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم "تسألك جوامع الخير وفواتحه وخواتمه ونعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه" (٢٠)

٤- احتواء العبارة على الكلم السهلة السلسة

لن تجد في الأدعية النبوية كلمة غريبة وحشية، بأن تكون مؤلفة من حروف متنافرة توجب ثقل النطق بها على اللسان. ولذلك نرى كل كلمتين الكلم الدعائية مما ثورمة سهلة مألوفة، تجلب ذهن القارئ والسامع إلى فهم خواطر المنشئ الزكية وعواطف المتمكلم النقية جلياً سريعاً، حيث لا تحول أمامها وحشة كلمة

تحتاج إلى البحث والتنقيب، وتنقيب القواميس والتقليب، فتختصر صدر السامع بما لتجهيد والتصعب، ويصبح بهما الكلام معيماً مرزولاً، وينغلق بها معناه مبهماً مجهوراً. وذلك لاستغناء الأدعية المأثورة بالمفردات السهلة الألفة عما يرادفها من الكلم الغريبة الوحشية. كما في قوله عليه الصلاة والسلام "اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً متقبلاً" (٢١)

وكما في قوله عليه الصلاة والسلام: "اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات" (٢٢)

د- انطواء الجملة على الكلم الموحية

الوجه الخامس لوضوح الأسلوب انطواء الجملة على الكلم الموحية، كما هو من خصائص الأسلوب الجزل. وإيجاء الكلمة عبارة عن إنارتها في النفس معاني كثيرة، أحاطت به مع مرور العصور عليها، حتى أصبح النطق بها مثيراً لتلك المعاني في النفس بقرينة مفهوم اللفظ أو بتصوير فحوى الكلام، أو بحرس حروف الكلمة، وإن لم تذكرها قواميس اللغة.

مثل "اللهم إني أسألك بأنك أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفراً أحد" (٢٣) نرى جميع كلماتها توحى معان ثا نوية إلى النفس السامعة مثيرة بها عواطفه. فاسم "الأحد" مثلاً يلهم السامع أن الله تعالى ليس بمعدود ولا ثا نى له فإن العدد عند أهل الفن هو نصف مجموع الحاشيتين. فالواحد لا حاشية له الأولى. على أن اسم "الأحد" وإن رادف "الواحد" با دي الرأي، إلا أن الأول له ميزة خاصة، من إباته أن يكون بعده ثان وهلم جرأ إلى ما لا

نهاية له من الأعداد. فلم يسمع من العرب استخدامه مجرداً في بداية الأعداد، إلا أن يكون مركباً بعدد آخر أو عطف عليه. فلن ترى تلك الميزة في "الواحد" فإنه عدد لغوي يقع في بدايات الأعداد. فلا يستنكف أن يأتي بعده ثان وثالث إلى ما لا نهاية له.

وكذلك اسم "المصمد" مثلاً يشير إلى معنى احتياج العبد المستغيث به خاصة، ويوحى أن العباد كلهم يصمدون ويميلون إليه في حوائجهم، فكيف يتعقل استغاثه اللهفان بمضطر آخر مثلاً

ومثل ذلك لفظ "الغيث" في دعاء المستسقي: "اللهم أغثنا اللهم أغثنا" (٢٤) يوحى بمماثلة حروفه وجرسها استعاذته من المطر الضار إما بقلته أو بكثرته وشدته، فلا يسد حاجة العباد بل يضرهم. (٢٥)

فأجراس الحروف التي تضاهاي أصوات الأفعال في الخارج سبب إيجاء معان رائعة في ذهن السامع، ولذلك أثر عميق في تقويم النص الأدبي وبرهان على مقدرة المنشئ وامتياز في قوته المستلهمة على استخدام الكلمات الموحية. (٢٦)

٦- اشتمال الحمل الدعائية على الكلمات الطريفة المهندبة

الوجه السادس لوضوح الأسلوب اشتمال الحمل الدعائية على الكلمات الطريفة المصونة بحياتها الأدبية عن الامتهان بكثرة الاستعمال والانحدار إلى الرتبة السوقية فيعد أسلوب الكلام حينما اشتمل على الألفاظ الممتهنة "أسلوباً سوقياً". فكما أن الأدعية النبوية ذوات أسلوب مهذب عن الكلمات الوحشية المستهجنة فكذلك أسلوبها نقي عن انطواء بكلمة سوقية ممتهنة وذلك لطرافة جميع مفرداتها. كما في قول النبي ﷺ "الحمل لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني." (٢٧)

٧- الرقة المفيدة في المفردات

ويراد برقة المفرد ما لا يثبت له موضوع الكلام كما لتحميد والوصف والمدح ونحوهما. فينتخب اللفظ من بين جميع ما يرادفه معنى مثل وضع "الحمد" موضع "الشكر" في دعاء الطاعم الشاكر: "الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين" (٢٩). فإن الحمد لعمومه أبلغ في أداء الشكر من لفظه، وإن كان يرادفه معنى ويقع موقعه، فلموضوع التحميد في الدعاء يلائم لفظ "الحمد"، فإنه شكر على النعمة الواصلة إليه والتي غيره حالاً وما ضياً. وذلك يترشح من إضافة المطعومة والسقاية إلى نفسه بضمير المتكلم المفرد، وكذا من مجعوليته مسلماً، ثم مدخوليته في زمرة المسلمين يرمز إلى نعمة الإسلام الواصلة إلى غيره.

٨- التحرز عن اجتماع حروف الصلة في جملة واحدة

يراد بهما حروف الجر إذا اجتمعت في الجملة متوالية. ولا يرى الباحث في الأدعية النبوية ذلك قط، فإنه يسبب استهجان الكلام المشتمل عليها متتالية، لإيقاع السامع في الغموض والإبهام.

٩- الخلو من التكرار المستهجن

تكرير كلمة واحدة في الكلام القصير نوعان:

مستحسن غريب، وهو تكرار اللفظ لغرض مهتم به، مثل التشويق والاستعذاب أو التضرع والاسترحام. والتكرار في الأذكار والأدعية المأثورة ربما يرجع إلى رعاية هذه الأغراض كلها أو بعضها. وقد يلاحظ بتكرار بعض الكلم في الأدعية المأثورة تلويح التفجع وإثارة التوجع وما إلى تلك.

وكان النبي عليه السلام يقول دبر كل صلاة: اللهم ربنا ورب كل شيء أنا

شهيدي أن محمداً عبدك ورسولك، اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن العباد كلهم آخرة، اللهم ربنا ورب كل شيء، اجعلني مخلصاً لك وأهلي، في كل ساعة من الدنيا والآخرة، يا ذا الجلال والإكرام، اسمع واستجب، الله أكبر الأكبر، نور السموات والأرض، الله أكبر الأكبر حسبي الله ونعم الوكيل، الله أكبر الأكبر. (٢٩)

إن ألفاظ اللغة حين تعجز عن ملاحقة هذا الجيشان المنساب في كل دعوة تجعل الرسول المنيب المتعبد يلجأ إلى التكرار في العبارة الواحدة لينفس عما استكن في صدره من روعة ومحبة وإجلال.

إنه في ظاهره ترداد للفظ واحد، وهو في باطنه تعبير عن معان متجددة من الولاء والهيام..... ما معنى أن يقول محمد لربه: "أشهد أن محمداً عبدك ورسولك" وذلك ضرب من الإصرار على تحمل الأمانة وإبلاغ الرسالة للناس كافة مهما كذبوا بها وتنكروا لصاحبها (٣٠). لقد كان حفيماً بنعمة الله يعظمها ويشكرها ويفغالي فيها - ومشكلة العصر الحديث أن قلب الإنسان معلق بالمزيد فيحدث القلق لذلك.

وفي تكرار "أعوذ" في أكثر الأدعية تلميح إلى استقلال كل رذيلة من تلك الرذائل المحتاجة إلى الاستعاذة المستقلة.

١٠ - المصطلحات العلمية أو المعارف الشرعية

إن المصطلحات العلمية أو المعارف الشرعية في الأدعية النبوية أقيمت لها قرآن موضح، وروابط عقلية ترفع الإيهام عن نصوصها الأدبية أمام السامع، فلاترى فيها نصماً أصبح بانهماك المنشىء في تحري الدقة جافاً أشبه بالسكر كالقانونية أو التجارية، خالياً من الروح الفنية ذاهب الماء والرونق. (٣١)

ب: جلاء الأسلوب

هو الأمر المتعلق بالقارئ والسماع، وهذا هو الخطوة الثانية للمنشئ الأديب بعد توافر دقة الفكرة ووضوحها. وهي جلاء الأسلوب ومطابقة التركيب لإدراك القارئ والسماع. وهي تبدو في صور شتى، من الرقة والجزالة والصعوبة والسهولة ونحوهما، حسب مقتضى المعاني التي تؤدى بالعبارة. فترى الأفكار العلمية والمعارف العريضة في الأدعية النبوية محققة بأليق مراتب السهولة، ونجد تراكيها من شحة بمحاسن الشفافية، فأصبحت كالزجاجة البيضاء الصافية، تحفظ الرسم وتتم عنه كأنه لا زجاجة عليه تحمية.

والأساس الممتاز عمل عليه لتحقيق جلاء الأسلوب في الأدعية الماثورة هو البساطة في صوغ العبارة وروح سموها وقوتها، والخلو عن التعقيد في التركيب. ويتعلق هذا الأساس بتكوين الأسلوب تكويناً منطقياً. وهو الذي يسلك بالكلمات، والمجمل والعبارة في صورة نظام عقلي وتفكير منطقي مطرد، والعامل في تحقق هذا الأساس في تكوين تراكيب تلك الماثورات هو مراعاة عدة قواعد قيمة مما يأتي:

القاعدة الأولى:

حسن التماليف بين الكلمات حسب مقتضى القواعد النحوية. فلذلك نرى الكلمات في الأدعية النبوية دالة على المعاني الدقيقة المعينة، وتسلم عباراتها عن الأمرين المستهجنين:

١: الغموض، حينما لا يدل التركيب على معنى معين دلالة قاطعة.

٢: اللبس، إذا ما كان التركيب يدل على معنيين ممكنين فصاعداً.

قال الشيخ محمد الغزالي: ومن أطف وأجمل ما روي عنه في ذلك "الحمد لله الذي أذاقني لذته وأبقى في قوته، وأذهب عني أذاه" (٢٢). والضمير في الجملة الثلاث يعود إلى الطعام. لمكان هذه الكلمات وضعها نفر من علماء الطب والأخلاق والبلاغة. فإنها ذكرت فضل الله فيما يشر من طعام شهوي، وفيما ادخره البدن من أسباب حياته ونمائه. ثم فيما استبعده هذا البدن من نفايات تضر ولا تسر.

لرأيت أجمل من هذا الحمد، وأرق من هذا السردي؟ إن النبي الإنسان دائم الاستحضار لآلاء الله، مسارع إلى شكرها ما استطاع.

القاعدة الثانية :

الموثوق على أن العناصر التركيبية المرتبطة بعضها ببعض في المعنى في الأدعية النبوية تلمح كأنهما تحتوي على المتبوعات وتوابعها، أو تتأبط معاني وأضدادها بنظام دقيق، وتألّف منسق رشيق، بحيث تبين للقارئ هذه الصلات بين الأجزاء، فلا ينصرف عقله عن المعنى مجتهداً فيما لا طائل تحته. كما ترى في دعاء القانت: "اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت" (٢٣)

القاعدة الثالثة :

مراعاة الصلة المعنوية في جمل الكلام على موضوع واحد، وذلك برعاية مقتضى الفصل والوصل ونوعية الروابط بين الأجزاء من حروف العطف أو الحال أو الاستثناء أو القصر وما إلى تلك، بحيث لا يوصل مفصول، ولا يفصل موصول، من غير داع معقول. فإذا يتراءى الكلام الأدبي سلسلة لفظية تدور على التسلسل المعنوي الرائع، ويتولد منها الموضوع التام لأسلوبه الأدبي الهادي العميق

العموسيقى، كما ترى ذلك في: "اللهم إني أسألك بأنك أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد" (٢٤)

القاعدة الرابعة:

مراعاة مواقع الإيجاز والإطناب والمساواة في الأدعية النبوية، فنرى فيها كل وصف من هذه الثلاثة أوفى بما لغرض في موقع دون آخر. فإن لكل حال مقال، يحسن فيه مالا يسوغ في غيره.

أ: فقد يفصح عن أصل مراده بلفظ يساويه في الكمية، فلا يزيد عليه ولا ينقص عنه نحو: "اللهم فقهه في الدين" (٢٥)

ب: وتارة يعبر عن أصل مراده من المعاني الكثيرة بالعبارة اليسيرة، حيث يكثرها في أوجز لفظ كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم "اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى" (٢٦)

ج: وأخرى يلوح المعنى المقصود، بلفظ أزيد على قدرة المعهود.

قال علماء البلاغة: الإطناب في موضعه حسن، ومثلوا لذلك بإجابة موسى لربه لما سأله ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ كان الجواب: عصاي.. ولكن موسى قال ﴿هي عصاي أتوكأ عليها، وأهش بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى﴾ (٢٧) إنه أطال الرد عمداً ليطيل الوقت مع العظيم الأعلى، ولما ذا يختصر فرصة العمر؟

وخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام كان يرى الصلاة معراج الذي يناجي فيه ربه، أو الساعة التي تصل المملا الأعلى بأهل الأرض، من أجل ذلك كانت الصلاة لذته الروحية، ومن أجل ذلك كان غضبه لما شغله المشركون عن موعد

لقاء مع من يحب .

وعلاقة الرسول مع ربه جل شأنه تستحق التأمل العميق في موقف آخر فقد تعرض المسلمون معه لانكسار شديد في معركة أحد، وقتل من الرجال العظام سبعون هم من خيرة شهداء التاريخ، وأصيب النبي عليه الصلاة والسلام بجرح نافذ في خده . ومع فرح المشركين، وشماتة العدو، وآلام المؤمنين، فقد دعا النبي عليه الصلاة والسلام إلى صلاة جامعة ليحمد الله على ما وقع .

روى الإمام أحمد قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون - عائدين بعد ما كان - قال رسول الله ﷺ: "استروا حتى أني على ربي عز وجل" فصاروا خلفه صفوفاً فقال ﷺ: "اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت . ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت".

"اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك، وفضلك ورزقك"

"اللهم اني عائد بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعتنا".

"اللهم حبب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر، والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين".

"اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا

مفتورين".

"اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل

عليهم رجزك وعذابك اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب . إله الحق" (٣٧)

هذه دعوات ينسكب اليقين من كل حرف فيها، إن الهزيمة قد تكسر أفئدة

الذين يعبدون الله على حرف . فأما الذين فنوا في الله وباعوه نفوسهم وأموالهم، فإن عبرديتهم تتألق في السراء والضراء، وهم يسلمون لله ما أراد ويخضعون لحكمته.

وذاك سرالكلمة الرقيقة المغالية التي قالها الرسول لصحبه بعد

الهيمنة: "استروا حتى أنثى على ربي عز وجل". (٢٩)

ج: قوة الأسلوب لإفادة التأثير

قوة الأسلوب خصلة فعالة من خصال الأدعية النبوية، تستميل القراء والسماعين بإيقاظ عقولهم الجامدة وإشعال مشاعرهم الخاملة، وإثارة العواطف في عقول الناس، فتهد لأفكارهم المقباس، بل تعطىها حياة طيبة أقوى من حياتها الجبلية، وأعجب من نضرتها العقلية. ثم أصبحت صفة للأسلوب ثانياً.

ولاريب في أن الأديب الذي يدرك الحقائق بوضوح ويحس الدقائق ويعتقد بصدق تحققها في قاعتها، ويحرص حرصاً على إذاعتها، تجد في عباراته قوة الفكر الممجيد، وهي قوة فعالة لا تتحقق بالتصنيع والتقليد، بل تبجس من النفس المتأبطة صدق العقيدة، وتفجر من الأخلاق الحميدة.

وإذا كان المعرض من قوة الأسلوب الجامع، هو إيقاظ مواهب القارئ والسماع، من عقلاهما وعواطفهما وأخيلتهما، لتترك المعاني النضيدة، وتحظى بمتعة جديدة، فلذلك تنسب لفظ "القوة" إلى "الأسلوب". إذ الأسلوب القوي صدمة للعقل الفعال، وقرعة للحس الجوال، ودعوتها للنزال، لكي تبحث عن أروع المحال، ومواقع إفادة المقال. ونجد لتحقيق القوة الأسلوبية، في نشأة المأثورات من الأدعية قاعدتين، كما يلي:

القاعدة الأولى :

هي قوة الصورة، ويراد بها ما يعبر به السامع من معناها الحرفي إلى معنى أو معان أخرى المتعلقة بالمعنى الحرفي على سبيل التمثيل أو الاستعارة أو الكناية أو ما يشابهها. فيرى الباحث في مآثورات الأدعية، تلك المعاني الثانوية، مرصعة بأزاليها المعنوية، بحيث تفتق أمام القارئ والسامع آفاقاً، وتفتح نطاق المشاهد للتفكير، كما تفتح فترات التخيلات بالتصوير، بعد ما كانت رتقاً عليه في التعبير. فتلك العبارات البيانية، والصور الخيالية الإنسانية تبين لنا: كيف تصور منشئها كل شيء بنقله، وكيف تناوله بعقله، وتجعلنا بحيث نشعر بشعوره، ونجد معه مشائعه في مروره. (٤٠)

ويتراءى تحقق الصورة القوية الأسلوبية في مآثورات الأدعية منوطاً على

عدة وسائل:

الوسيلة الأولى :

هي استخدام الكلم المألوفة المحدودة المعنى، فنلك يفيد توضيح الأفكار والصور. كما يفيد قوتها واستمرارها في العقول. إذ لا ينفع في الأسلوب العلمي الأدبي لفظ مشترك ولا غامض، ولا تفيد فيه الكلمات الأجنبية التي لم ترو من الروح العربي، لأن قوة الأسلوب تفقد بفقدان الإلف والوضوح لامحالة.

الوسيلة الثانية :

توشيح المحمل بالكلم الوصفية المفيدة في جمال الأسلوب وقوته. ويرام بالكلم الوصفية هنا مصورات الحوادث أو المشاهد التي تجذب الأنظار، وتجلب الأفضدة وتثير الإعجاب، بحيث تسدل على ما في الموصوف من بهجة ممتعة أو صوت محمل أو إبداع عجيب وذلك من ميزات صنفية "الوصف" في الأدعية

النبوية. (٤١)

الوسيلة الثالثة :

الاستعمال الممحازي للكلمات أو توصيفها بنعوت غريبة تؤدي معنى المبالغة المقبولة، والإيجاز الطريف الموسع لمجال التفكير والتحليل اللطيف. كما قال رسول الله ﷺ: إذا أتيت مضجعا فتوضأ وضوئك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: "اللهم أسلمت نفسي إليك، وفوضت أمري إليك، ووجهت وجهي إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت" (٤٢)

دعاء جميل يؤدي لحناً موسيقياً هادئاً يناسب حالة النوم، لأنه يريح الأعصاب ويهيئ المرء للاستغراق في نوم لذيذ عميق. والصورة الأولى التي نورد أن نتأملها ونقف عندها قليلاً هي قوله (وألجأت ظهري إليك) بمعنى اعتمدت عليك واستعنت بك ولجأت إليك فإذا كان الناس يعتمدون على بعض أصحاب الطاقات والإمكانات فإن المسلم لا يعتمد إلا على الله ولا يلجئ إلا إليه، ويستعين به وحده. والصورة الثانية قوله (وجهت وجهي إليك) أي ليس لي مقصد في عمالي كلها إلا أنت فإنا قد وجهت وجهي إليك.

وهما صورتان ماديتان تعبران عن معنيين مجردين. وبعد فإن الدعاء يحمل في طياته لجوءاً إلى الله تبارك وتعالى، وتبرؤاً من الحول والقوة، وهذا يضيء على النفس لو نأمن الاستقرار والطمانينة... لا سيما أن الليل مخيف وهو يخفي الويل. (٤٣)

القاعدة الثانية :

قوة التركيب ، فقد تحققت القوة التركيبية في الأدعية النبوية بوضع كلماتها حيث تكسب عناية وانتباها . وقد تم هذا التحقق برسيلتين:

١ : تمديد الكلمة أو تأخيرها عن موقعها الطبيعي دلالة على القصر أو التخميم أو حسن المذوق واللياقة أو الأهمية مطلقاً . مثل قول القانت : ” اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحفد “ (٤٤) . ونحو ” اللهم برحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين “ (٤٥) وما إلى ذلك .

٢ : مراعاة الطباق البديعي ، فإن المقابلة بين المعاني المتناسقة في ظهورها نوع من التحمدي وتوثيق لقوة المعاني . مثل : ” اللهم إني أسألك من خير ما هو له، وأعوذ بك من شره وشر ما هو له “ (٤٦)

ونحو دعاء المستعبد عند هبوب الرياح العاصفة: ” اللهم إني أسئلك خيرها وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به . وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به “ (٤٧)

٣ : الروعة الجمالية للأسلوب

صفة الجمال لا تعني الأساليب الأدبية عنها ، مادام الأديب معنياً بإمتاع القراء والسامعين واحترام أذواقهم الأدبية . فإنا قد نرى فقرة أدبية واضحة الأفكار، قوية العاطفة . ومع هذا تكون نائية عن الذوق السليم، فجدة العبارة لا تمتزج بالذوق . فربما يكون هذا النقص عن سقم التعبير، ودليلاً على خمود الشعور والتفكير وقربنة على خمود الذوق الأدبي ، وهذا السبب يقتضي العناية بالجمال الأسلوبي، الموسيقي العبارة لإرضاء ذوق القاري، وخياله الساري، إرضاءً أزيد من مقتضى عقله .

وأما المحسنات المديعية والصور الخيالية، التي يصطنعها المنشؤون الأدباء، فليست في شيء من إجبار ذلك النقص الذوقي، بل الحق أنها تدخل الأساليب الأدبية حين تدعوها المعاني بطبعها. وذلك كما نرى في الأدعية النبوية قد رصعت تلك المحاسن بأزيا لها، إما لتقويتها أو لإيضاحها، أو عند ملجأ الخيال إليها لتصوير عاطفة صادقة أو لتطوير انفعالات سابقة. (٤٨)

فالمجمال الأسلوبي له ناحيتان، السلبية والإيجابية، تقوم كل منهما بخلو الأسلوب من التنافر والخشونة التي تؤذي حسن الذوق وبذلك يصبح الأسلوب صدى صادقاً لجماله.

الناحية السلبية:

يرادبها خلو العبارة عن أسباب الاضطراب الصوتي والخشونة القاسية التي لا تنم العبارة المحتوية عليها عن عاطفة أو خيال. ولذلك الخلوص توجد الكلم والمجمال في الأدعية النبوية مطردة متناسقة، يتولد منها الصوت متناسب الأنغام المنسجمة الصافية. وأعان في خلوصها:

١: مقطرة الأديب منشئها بذوقه المصنفي على أبعاد الحروف والكلم والعبارة المتنافرة.

٢: سلامة العبارة من الرتابة الصوتية، التي تبدو في ترديد النغمة بينها في النص الأدبي حتى تبعث الملل فيمجهها آذان السامع. فالتنوع المحتفظ على المستوى الموسيقي الملائم للموضوع خير منه، كما نراه مرصعاً بأزيا لما ثورات الأدعية.

٣: ملاحظة النغمة العامة للأسلوب، ورعاية التيار الصوتي المطرد، لطرده الملل المطبوعي والكلل النفسي. وينوط ذلك على براءة العبارة من الكلم الطويلة الكثيرة

وترديد الجممل الممتشابهة والعبارات العادية إلى مدى بعيد. وهذه الناحية تعد الأسلوب لقبول العنصر الإيجابي للجمال.

كما كان رسول الله ﷺ يقول: "اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والمجنون والبخل، والهرم وعذاب القبر. اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاهما، أنت وليها ومولاها. اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها" (٤٩).

دعاء جامع، وهو كأكثر الأدعية المأثورة حافل بلون موسيقي أخاذ، يوزع الإيقاع بين جملة وكلماته توزيعاً يجعل للكلام لحناً جميلاً، وزاد السجع المطبوع من جمال الإيقاع وروعته. (٥٠)

الناحية الإيجابية:

هي مطابقة اللفظ للمعنى، وتسمى باسم التلاؤم والتناسب. ومظاهرتلك الناحية في الأدعية النبوية كما يلي:

١: ابتكار الأحيولة: يراد بابتكار الخيال تصوير الشخصيات التي لا وجود لها في الخارج، ونسب إليها المنشئ الأديب ما شاء من الأقوال والأفعال. ونرى ذلك في ما ثورات الأدعية منوطاً على عقل المنشئ الحاد الزكي، كما نرى أمثاله النموزجية في تصوير الجامع الرهيمي في فني المعاني والبيان وتدور حوله أبواب التشبيه والتمثيل والاستعارة والمكناية. مثل تصوير المطر الذي يسد حاجة العباد بصورة المغيث، ثم نسبة الإغاثة والإنجاح من أيدي الجذب والقحط وعدوانها، إلى تلك الصورة المخيلة. ونرى ذلك في دعاء المستسقي: "اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً، مريئاً مريعاً نافعاً غير ضار عاجلاً غير آجل" (٥١).

ومن هذا القبيل تصوير المسافة البعيدة بصورة السجل العريض الطويل المفروش في دعاء من خرج من بيته مسافراً: "اللهم هون علينا سفرنا هذا واطوعنا بعد الأرض، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعناء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في الأهل والمال."^(٥٢)

دعاء السفر هنا دعاء جميل جامع، يربط المرء بالله، ويذكره بالقيم العليا التي في المدين... يطلب الإنسان فيه من ربه أن يحفظه في شؤون دينه ودنياه في سفره، وأن يحفظ ما ترك من أهل ومال.

وفي الدعاء تنزيه لله وثناء عليه وشكره. والصورة الجميلة التي تضمنتها هذا الدعاء هي صورة طي الأرض أو البعد. "اللهم اطولنا الأرض" أو "واطوعنا بعد" (٥٣)

٢ - تكون العبارة حسب المعاني المبتكرة والأسرار المقتضية. وتبدو من ذلك حياة شعور المنشئ الأديب وصديق خياله الأيقظ، وإفادتهما بالمقياس السديد في تكوين العبارات الملائمة إفادة تامة مثل دعاء المستعبد: "اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وهمزه ونفخه ونفته" (٥٤) فكل لفظ منه لو وقع موقعه ما يرادفه، لفات الأسرار المودوعة في تلك الجملة، واحتل جماله الأسلوب (٥٥).

مشيرات الأدعية النبوية وأسلوبها المثالي

كلام كل أديب لا بد لانفجاره من عروق نابغة مشيرة تدفع الطبع الموهوب له إلى قرضه، شعراً كان أو نثراً. فكنالك الأدعية النبوية لها مشيرات تبعث العبد

وتلجئه أمام ربه عز وجل بتلك المأثورات. وتعرف تلك المأثورات بلفظي "العواطف والانفعالات". فكما نرى للشعر دواع تبعث الشاعر الأديب على تمقير بعضه، مثل الطرب والشوق والطمع والرفاء والغضب وما إلى تلك، فكذلك الأدعية النبوية لها بواعث شتى بعضها أقوى من بعض، بيد أن جميعها تلتزم في أربعة، وهي: الرغبة والرغبة والمطرب والغضب. وينبجس من كل منها الأذكار والأدعية النبوية المليئة بلاغة على تنوعها بتنوع الأحوال والمحال.

فينفجر مثلاً من الرغبة المحامد والشكر، كما تنقطر منها المدائح ونحوها. كما في قول النبي ﷺ: "اللهم أطعمت وسقيت وأغنيت وأقنيت وهديت وأحييت، فلك الحمد على ما أعطيت" (٥٦). ومن الرغبة الاعتذار والاستغفار كما في قوله عليه الصلاة والسلام: "اللهم أسلمت نفسي إليك، وفوضت أمري إليك، ووجهت وجهي إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك، آمننت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت" (٥٧) والاستعفاف ونحوها.

وينشأ من الطرب الشوق والاستلذاذ كما في قوله عليه الصلاة والسلام: "أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وكلمة الإخلاص في الرضاء والغضب وأسألك القصد في الفقر والغنى وأسألك نعيماً لا ينفد وقرّة عين لا تنقطع وأسألك الرضاء بالمقضاء ويرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك" (٥٨) ويتولد من الغضب اللعن وتهجين الملعون. وتري ذلك في القنوت النازلة، "اللهم عذب المكفرة أهل الكتاب والمشركين الذين يجحدون بآيتك ويكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، ويتعدون حدودك، ويدعون معك إلهاً

آخر، لا إله إلا أنت، تباركت وتعاليت عما يقول الظالمون علواً كبيراً. (٥٩)

ثم إن تلك المعراطف البراعث في الأدعية النبوية تمتاز عنها في كلام عامة الأدباء قسوة وسمواً. ويدور هذان الرصفتان فيها على المقياس الخلفي والديني، وينحرف به صادقها، حيث تلج شغاف القلوب كنسيم الصباح، ينبض بها النفوس عند سماع عباراتها، حيث تبعث العقل والوجدان، وتثير مشاعر الإنسان، وينفخ في نفس السامع بهجة المعرفان. فليس منهجها كمنهج القواعد النظرية والمسائل الجبرية، وهو المعروف عند نقاد الأدب باسم "قليل الماء والرونق".

ونرى في الأدعية النبوية أسلوباً مثالياً أيده العقل بالحقيقة، وساعدته الكلمات الرقيقة، لها سهولة في السمع وعذوبة في القلب وروح في الصدر، ولذة كليلة الغناء وجمش كجمش الغانية. إذا ورد لم يحجب، وإذا صدر لم ينس، وإذا طال لم يمل، وإذا قصر لم يخجل. له غنج كغنج العين، ودل كدل الحبيب، وله وقار كوقار الشيخ اللبيب، ولين كلين الصبيب، وحلاوة كحلاوة العافية، وأخذ كأخذ الخمرور المصافية، وولوج كولوج النسيم، وله وقع كوقع القطر، ونفحة كنفحة العطر، واستواء كاستواء السطر، وسبك كسبك التبر. (٦٠)

ويجمع أسلوب تلك المأثورات بين صحة النهجة، والأتمية والبهجة. فأما صحته فمن شهادة العقل له بالتصويب، وأما بهجته فمن ناحية كيفية اللفظ في التركيب، واعتدال القسمة العجيب. وأما تمامه فمن حيث النظم المستعير من النفس شغفها، ويستشير من كلفها.

فلها أسلوب كلامي ليس فيه أثر للصنعة، ولا وسامة التكلف والتعسف. ماهي إلا كلام منسكب انسكاباً وجار جرياً، يزيد لطفه على الطبع بقدر ما يزيد

الطبع على التصنع. قليله عزيز وكثيره غريز، ومعناه أقوم ممن لفظه، ولفظه أرشق من وزنه، ووزنه أعدل من نظمه، ونظمه أحلى من نشره. ومجموع تلك الأدعية أبهى من مفرقتها، ومفرقتها أطرف من مجموعها، وبعضها أغرب من كلها، وكلها أروع من بعضها.

وهي مسبوكة في صيغ كلام يستوي فيه تعجب الجاهل، وتحير الأديب الفاضل، ويستعالي المذهن الغريق، ويستغرق الفهم الدقيق، ويرشد الرؤية إلى الإدراك، ويردها إلى البديهية من الانهماك. ويلوح الرونق لذي عقل نجيح، وذو علم غريز وطبع سجيح. (٦١)

/...../...../

الهوامش والمصادر

- (١) - العاملي، نصير الدين "أسلوب الدعاء في القرآن الحديث" مجلة الأدب الشهرية مارس سنة ٢٠٠٣ ص ٢٨٠.
- (٢) - البخاري، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ) "صحيح البخاري" ط ١، عام ١٩٩٩ م، دارالسلام، الرياض. رقم الحديث ٣٤١٩.
- (٣) - الطبراني، سليمان بن أحمد "المعجم الكبير"، ط. وزارة الأوقاف، بغداد. رقم الحديث ٤١٤.
- (٤) - الندوي، نعمان الدين "الروائع والبدائع في البيان النبوي" ص ٤٣-٤٥. ط ١، ١٤٢٠هـ، دارالشهاب، بيروت، لبنان.
- (٥) - الندوي، نعمان الدين "الروائع والبدائع في البيان النبوي" ص ٤١-٤٢.
- (٦) - العجلوني "كشف الخفاء" ج ٢ ص ٧٢. دارالكب العلمية، بيروت.
- (٧) - الندوي، نعمان الدين "الروائع والبدائع في البيان النبوي" ص ١٦٣.
- (٨) - الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩هـ) "سنن الترمذي" ط ١، عام ١٩٩٩ م، دارالسلام، الرياض. رقم الحديث ٧.
- (٩) - أبو داؤد سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ) "سنن أبي داود" ط ١، عام ١٩٩٩ م، دارالسلام، الرياض. رقم الحديث ١١٧٠.
- (١٠) - العاملي، نصير الدين "أسلوب الدعاء في القرآن الحديث" مجلة الأدب الشهرية مارس سنة ٢٠٠٣ ص ٢٨٥.
- (١١) - ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت ٦٠٦هـ) "النهاية في غريب الحديث والأثر" تحقيق الطناحي وزميله، نشر المكتبة الإسلامية، عام

١٣٨٣ هـ. ص ٦٩.

(١٢) - العاملي، نصير الدين "أسلوب الدعاء في القرآن الحديث" مجلة الأدب الشهرية مارس

سنة ٢٠٠٣ ص ٢٨٩.

(١٣) - الترمذي "سنن الترمذي" رقم الحديث ٣٤٥٧.

(١٤) - الترمذي "سنن الترمذي" رقم الحديث ١٠٢٤.

(١٥) - أبو داؤد "سنن أبي داؤد" رقم الحديث ١٥٥٥.

(١٦) - سورة التوبة رقم الآية ٥٤.

(١٧) - أبو داود "سنن أبي داؤد" رقم الحديث ١٥٣٧.

(١٨) - الترمذي "سنن الترمذي" رقم الحديث ٣٤٤٩.

(١٩) - الترمذي "سنن الترمذي" رقم الحديث ٣٢٨٩.

(٢٠) - الزبيدي "إتحاف السادة المثقفين"، دارالفكر، بيروت. ج ٢ ص ٨٠.

(٢١) - ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه (ت ٢٧٥ هـ) "سنن ابن

ماجه" ط ١ عام ١٩٩٩ م، دارالسلام، الرياض. رقم الحديث ٩٢٥.

(٢٢) - الترمذي "سنن الترمذي" رقم الحديث ٣٤٩٤.

(٢٣) - أبو داؤد "سنن أبي داؤد" رقم الحديث ٩٨٥.

(٢٤) - المسلم، إمام أبو الحسين مسلم بن حجاج القشيري (ت ٢٦١ هـ) "صحيح

المسلم" ط ١، عام ١٩٩٩ م، دارالسلام، الرياض. رقم الحديث ٢٠٢٨

(٢٥) - العاملي، نصير الدين "أسلوب الدعاء في القرآن الحديث" مجلة الأدب الشهرية مارس

سنة ٢٠٠٣ ص ٢٩١.

(٢٦) - ابن جنبي "الخصائص" ج ١ ص ٥٤٤ - ٥٤٩.

(٢٧) - "سنن ابن ماجه" رقم الحديث ٣٠١.

(٢٨) - الترمذي "سنن الترمذي" رقم الحديث ٣٤٥٧.

(٢٩) - أبو داؤد "سنن أبي داؤد" رقم الحديث ١٥٠٩.

- (٣٠) - محمد الغزالي "فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء"، منشورات المكتبة العربية، بيروت، محمد الغزالي "فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء" ص ٢٢.
- (٣١) - العاملي، نصير الدين "أسلوب الدعاء في القرآن الحديث" مجلة الأدب الشهرية مارس سنة ٢٠٠٣ ص ٢٩٢.
- (٣٢) - ابن السني، "عمل اليوم والليلة" مع تحقيق عبد الرحمن الكوثر، دار القبلة للبشائر الإسلامية، رقم الحديث ٢٥.
- (٣٣) - البخاري "صحيح البخاري" رقم الحديث ١٠٨٣.
- (٣٤) - أبو داؤد "سنن أبي داؤد" رقم الحديث ٩٨٥.
- (٣٥) - البخاري "صحيح البخاري" رقم الحديث ١٤٣.
- (٣٦) - الترمذي "سنن الترمذي" رقم الحديث ٣٤٨٩.
- (٣٧) - سورة طه رقم الآيات ١٧-١٨.
- (٣٨) - أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) "مسند إمام أحمد" دار صادر، بيروت، رقم الحديث ١٥١٩٠.
- (٣٩) - محمد الغزالي "فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء" ص ١٦٧-١٦٨.
- (٤٠) - العاملي، نصير الدين "أسلوب الدعاء في القرآن الحديث" مجلة الأدب الشهرية مارس سنة ٢٠٠٣ ص ٢٩٣.
- (٤١) - العاملي، نصير الدين "أسلوب الدعاء في القرآن الحديث" مجلة الأدب الشهرية مارس سنة ٢٠٠٣ ص ٢٩٢.
- (٤٢) - البخاري "صحيح البخاري" رقم الحديث ٦٣١٣.
- (٤٣) - الصباغ، محمد بن لطفى، "الحديث النبوي" ط ١، المكتب الإسلامي، جدة، ص ٩٢-٩٣.
- (٤٤) - ملا علي القاري، "الحزب الأعظم"، تحقيق ظفر نياز، المكتبة العربية، لاهور، باكستان، رقم الحديث ١٠٣.

- (٤٥) - ابن السني "عمل اليوم والليلة" رقم الحديث ٣٤٢.
- (٤٦) - ابن السني "عمل اليوم والليلة" رقم الحديث ١٤.
- (٤٧) - الترمذي "سنن الترمذي" رقم الحديث ٣٤٤٩.
- (٤٨) - العاملي، نصير الدين "أسلوب الدعاء في القرآن الحديث" مجلة الأدب الشهرية مارس سنة ٢٠٠٣ ص ٢٩٣.
- (٤٩) - المسلم "صحيح المسلم" رقم الحديث ٦٩٠٦.
- (٥٠) - الصباغ "التصوير الفني في الحديث النبوي" ص ٣٩٦-٣٩٧.
- (٥١) - أبو داؤد "سنن أبي داؤد" رقم الحديث ١١٧٠.
- (٥٢) - الترمذي "سنن الترمذي" رقم الحديث ٣٤٣٨.
- (٥٣) - الصباغ، محمد بن لطف، "التصوير الفني في الحديث النبوي" ط. ١، المكتب الإسلامي، جدة. ص ٣٩٤-٣٩٥.
- (٥٤) - ابن ماجه "سنن ابن ماجه" رقم الحديث ٨٠٨.
- (٥٥) - العاملي، نصير الدين "أسلوب الدعاء في القرآن الحديث" مجلة الأدب الشهرية مارس سنة ٢٠٠٣ ص ٢٩٦.
- (٥٦) - النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب "سنن النسائي"، ط. ١، عام ١٩٩٩ م، دار السلام، الرياض. رقم الحديث: ٦٨٩٨.
- (٥٧) - البخاري "صحيح البخاري" رقم الحديث ٦٣١٣.
- (٥٨) - النسائي "سنن النسائي" رقم الحديث ١٣٠٢.
- (٥٩) - ملا علي قاري "الحصن الأعظم" رقم الحديث ٢٥٣.
- (٦٠) - أحمد بن محمد "الأدعية المأثورة في ميزان الأدب" مجلة القلم الشهرية، دمشق، الحلقة الأولى ص ٣٨١.
- (٦١) - أحمد بن محمد "الأدعية المأثورة في ميزان الأدب" ص ٣٨٢.